على صالحٍ عليه السّلام أن يُخْرِج لهم من صخرةٍ معيّنةٍ أشاروا إليها ناقةً لها صفاتٌ معينة فدعا صالحٌ عليه السّلام ربّه عزّ وجلّ فاستجاب له.

قَالَ

هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا
بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟
نَٰدِمِينَ ﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

شِرْب: الشّرب الحظّ والنّصيب من الماء. والشُّرب والشَّرب والشِّرب مصادر كلّها بالضَّمّ والفتح والكسر(١).

فأصبحوا نادمين: فأصبحوا نادمين على عقرها فلم ينفعهم ندمهم(٢).

استجاب الله تعالى دعاء صالحٍ عليه السّلام فأخرج عزّ وجلّ النّاقة المطلوبة من الصّخرة المعيّنة، وقال صالحٌ عليه السّلام لقومه: هذه ناقةٌ لها نصيبٌ وحظٌّ من الماء في يوم، ولكم نصيبٌ وحظٌّ من الماء في يومٍ آخر، لا تزاحمونها في اليوم المخصّص لها، ولا تزاحمكم في اليوم المخصّص لكم. ولا تمسّوها بسوءٍ من إيذاء أو عقر فيأخذكم عذاب الله تعالى الأليم في يومٍ عظيم.

لم يمتثل قوم صالحٍ عليه السّلام لنصيحته وكفروا نعمة الله تعالى عليهم الّتى تمثّلت في النّاقة الّتى تملأ منازلهم لبناً وخيراً فعقرها الأشقياء، وأدركوا خطأهم، وأصبحوا نادمين حيث لا ينفع النّدم، فأخذهم عذاب الله تعالى. جاء ـ مثلاً ـ في سورة فصّلت(٣) قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وأمّا ثمود فهديناهم فاستحبّوا العمى على

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٤.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٤.

(٣) الآية ١٧.

الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهُون[1] بما كانوا يكسبون﴾.

إنّ في إهلاك الله تعالى ثمود لآيةً دالّةً على قدرة الله تعالى، وما كان أكثر أهل مكّة مؤمنين رغم كلّ هذه الآيات والعبر. وإنّ ربّك يا محمّد لهو العزيز في ملكه المنتقم من أعدائه الكافرين، الرّحيم بالمؤمنين والّذى وسعت رحمته كلّ شيءٍ وحيّ.

(١) الهون : المهين.

(٧)

(أصرّ قوم لوطٍ عليه السّلام على التّكذيب وإتيان المنكر فدمّرهم الله تعالى تدميرا)

الآيات (١٦٠-١٧٥)

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾

لوط : هو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السّلام[1].

أتأتون الذّكران من العالمين: أتنكحون الذّكران من بني آدم في أدبارهم[2].

وتذرون ما خلق لكم ربّكم من أزواجكم: وتدعون الّذي خلق لكم ربّكم من أزواجكم من فروجهنّ فأحلّه لكم[3].

بل أنتم قومٌ عادون: بل أنتم قومٌ تتجاوزون ما أباح لكم ربّكم وأحلّه لكم من الفروج إلى ما حرّم عليكم منها[4] ومتجاوزون الحلال إلى الحرام[5].

كذّبت قوم لوطٍ عليه السّلام المرسلين أجمعين، لأنّ تكذيبهم واحداً من الرّسل تكذيبٌ لسائرهم. لقد كذّبوه عليه السّلام حين قال لهم، وهو أخوهم نسباً ومن القبيلة ذاتها، هلاّ اتّقيتم عذاب الله تعالى بالإيمان به وعمل الصّالحات. لقد كان قوم لوطٍ عليه السّلام يسكنون سدوم وأعمالها الّتي أهلكها الله بها وجعل

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١٦٧.

(٢) تفسير الطّبري ١٩/ ٦٤.

(٣) تفسير الطّبري ١٩/ ٦٤.

(٤) تفسير الطّبري ١٩/ ٦٤.

(٥) الجلالين.

مكانها بحيرةً منتنةً خبيثة. وهي مشهـورةٌ ببلاد الغور متاخمةٌ لجبال البيت المقدّس، بينها وبين بلاد الكَرَك[1] والشَّوْبك[2].

لقد بيّن لوطٌ عليه السّلام، وهو ابن أخى إبراهيم عليـه السّلام ومعاصرٌ له، بيّن لقومه أنّه رسولٌ إليهم من ربّ العالمين، أمينٌ في تبليغ الرّسالة. فعلى قومه أن يتّقوا الله تعالى بعمل الطّاعات حتّى يبلغوا مـرتبة التّقوى، وأن يطيعوه عليه السّلام فيما جاءهم به من ربّه عزّ وجل. وهو عليه السّلام لا يسألهم أدنى أجر ولا يطلب في المقابل أيّ نفع. إنّ أجره على الله تعالى وحده لا شريك له.

وفي أسلوب الاستفهام ينكر لوطٌ عليه السّلام على قومه أن يأتوا الذّكران من بني آدم في أدبارهم ويَدَعُوا ما خلق الله تعالـى لهم من فروج نسائهم ومن حرثهم حيث المتعة والحصول على الذّرّيّة.

الحقيقة أنّ القوم بإتيان الذّكران قومٌ معتدون متجاوزون الحلال إلى الحرام.

وبشأن القـول: ﴿أتأتون الذّكران﴾ نودّ أن نشير إلـى جملة: «أتى» الّتى قلنا إنّها تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على الـبعد. ما أشقّ المنكر الّذى يأتيه مرتكبو الفواحش وما أصعب المرتقى.

---

(١) الكرك بفتح أوّله وثانيه وكافٍ أخرى: اسمٌ لقلعـةٍ حصينةٍ جداً في طرف الشّام من نواحى البلقـاء في جبـالهـا بين أيلة وبحـر القُلْزُم وبيت المقـدس. وهي على سنّ جبلٍ عـال. ياقوت: «كرك» والشَّـوْبك بالفتح ثمّ السّكون ثمّ الباء الموحّـدة المفتوحة وآخـره كاف: قلعة حصينةٌ في أطراف الشّام بين عمّان وأيلة والقُلْزُم قرب الكَرَك. ياقوت: «الشّوبك».

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ١٦٧.

قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾
رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾
إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم
مَّطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾

من القالين: من المبغضين المنكرين فعله[1].

ربّ نجّني وأهلي ممّا يعملون: ربّ نجّني وأهلي من عقوبتك إيّاهم على ما يعملون من إتيان الذّكران[2].

في الغابرين: الباقين بَعْدُ في العذاب[3].

فساء مطر المنذرين: فبئس ذلك المطر مطر القوم الّذين أنذرهم نبيّهم فكذّبوه[4] وساء ههنا تجرى مجرى بئس[5].

أصرّ قوم لوطٍ عليه السّلام على الكفر والتّكذيب وأنكروا على لوطٍ عليه السّلام والمؤمنين طهرهم وعفافهم وترفّعهم عن إتيان ذلك الصّغار وقالوا دون خوفٍ أو حياء: لئن لم تنته يا لوط وتكفّ عن دعوتنا إلى التّوحيد وعن نهينا عن إتيان الذّكران في الأدبار لتكوننّ من المخرجين المطرودين من قريتنا!.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٥.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٥.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «غبر» ٢/ ٤٦٣.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٥.

(٥) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «سوأ» ١/ ٣٣٤.

قال لوطٌ عليه السّلام لقومه إنّي لعملكم الّذى تأتونه من المبغضين له أشدّ البغض، ودعا ربّه عزّ وجلّ أن ينجّيه هو وأهله أجمعين من عذابه جلّ وعلا الّذين يأتون الذّكران من العالمين.

لقد استجاب الله تعالى دعاء لوطٍ عليه السّلام فنجّاه هو وأهله أجمعين من العذاب الأليم إلاّ عجوزاً هي زوجه عليه السّلام فقد كانت من الباقين في العذاب المهلكين. وقد دمّر الله تعالى الآخرين الكافرين، وقلب قُرَى القوم رأساً على عقب، وأمطر عزّ وجلّ عليهم مطراً في هيئة الحجارة السّاقطة نتيجةً لقلب القرى رأساً على عقب، فبئس مطر المنذَرين لأنّه من الحجارة وليس من الماء.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

إنّ في إنجاء الله تعالى لوطاً والمؤمنين وإهلاك الكافرين المنحرفين عن سواء السّبيل لآيةً دالّةً على قدرة الله تعالى. وما كان أكثر أهل مكّة مؤمنين رغم كلّ هذه الآيات البيّنات، وإنّ ربّك يا محمّد لهو العزيز في ملكه القاهر للكافرين الرّحيم بالمؤمنين.

وإنّ في ذكر قوم لوطٍ عليه السّلام بعد ذكر عادٍ وثمود رغم تقدّم قوم لوطٍ عليه السّلام زمناً يذكّرنا بالحكمة الّتي سبق أن أومأنا إليها في أثناء تفسير سورة الفرقان بشأن التّرتيب ذاته. إنّ ثمود وقوم لوط تشترك ديارهما في كون آثارهما باقيةً لأخذ العظة والعبرة. ولمّا كانت ثمود قد سبق ذكرها مع عاد فبقي إذن قوم لوطٍ عليه السّلام، ولهذا تأخّر ذكرهم. والله تعالى أعلم.

ومن الآيات الكريمات الّتي تحدّثت عن لوطٍ عليه السّلام وقومه الآيات

الكريمات من سورة القمر[1] قال عزّ من قائل: ﴿كذّبت قوم لوطٍ بالنّذر. إنّا أرسلنا عليهم حاصباً إلاّ آل لوطٍ نجّيناهم بسحر. نعمةً من عندنا كذلك نجزى من شكر. ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنّذر. ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر. ولقد صبحّهم بكرةً عذابٌ مستقرّ. فذوقوا عذابى ونذر. ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر﴾.

---

(١) الآيات ٣٣ـ٤٠.

(٨)

(أصرّ قوم شعيبٍ عليه السّلام على التّكذيب والإفساد في الأرض فأخذهم عذاب يوم الظُّلَّة)

الآيات (١٧٦-١٩١)

كَذَّبَ أَصْحَٰبُ

لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ
مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾

أصحاب الأيكة: هم أهل مدين[1] والأيكة: الشّجر الملتفّ، وهي واحدة الأيك، وكلّ شجرٍ ملتفٍّ فهو عند العرب أيكة[2].

أرسل الله تعالى شعيباً عليه السّلام إلى أصحاب الأيكة، وهم أهل مدين. ويقال إنّهم كانوا يعبدون تلك الأيكة[3] بمعنى الشّجر أو الشّجرة الواحدة[4] وشعيبٌ عليه السّلام هو الّذى تزوّج موسى عليه السّلام إحدى ابنتيه عليه السّلام على نحو ما بيّنت سورة القصص المكّيّة الكريمة وقرّرت في الآيتين الكريمتين السّابعة والعشرين والثّامنة والعشرين على جهة الخصوص. والمعروف أنّ موسى عليه السّلام يتأخّر عن إبراهيم ولوطٍ عليهما السّلام زمنا. وبذلك تكون السّورة الكريمة قد رتّبت بعد إبراهيم عليه السّلام النّبيّين ترتيباً تأريخيّاً. وسبق أن أومأنا إلى حديث السّورة الكريمة عن موسى عليه السّلام ابتداءً وعن إبراهيم عليه السّلام بعد ذلك، كما تكون السّورة الكريمة قد عادت إلى الزّمن الأوّل الّذى انطلقت منه، وكأنّها تردّ عجز الكلام على صدره بحديثها عن موسى عليه السّلام ابتداءً، وعن شعيبٍ عليه السّلام انتهاءً.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٥.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٥.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ١٦٨.

(٤) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ١٦٨.

وشعيبٌ عليه السّلام من قبيلة مدين ذاتها، فهو أخو القوم نسباً. جاء في سورة هود[1] قول الحقّ جلّ وعلا: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ والمعنى: ولقد أرسلنا إلى مدين أخاهم شعيباً، اذ يبين عليه السّلام لقومه أنّه لا يسألهم أدني أجر مقابل الدّعوة إلى الله تعالى الّتى هي أحسن القول بنصّ القرآن الكريم. إنّ أجره على الله تعالى الّذى يعلم السّرّ وأخفى.

أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا
تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾
وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾
وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾

ولا تكونوا من المخسرين: ولا تكونوا ممّن نقص النّاس حقوقهم[2].

وزنوا بالقسطاس المستقيم: وزنوا بالميزان[3] السّوي[4] العدل[5] الّذى لا بخس فيه على من وزنتم له[6].

ولا تبخسوا النّاس أشياءهم: ولا تنقصوا النّاس حقوقهم في الكيل والوزن[1].

---

(١) الاية ٨٤.

(٢) انظر تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٦.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٦.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ١٦٩.

(٦) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٦.

الكيل والوزن[1].

ولا تَعْثَـوْا في الأرض مفسدين: عَـثا يَعْثُو عَـثْواً وعُثُواً وعُـثِيّاً: أفسـد أشدّ الإفساد. وعَثِيَ يَعْثَى عُثُواً وعُثِيّاً وعَثياناً: عثا[2] وعاث يعيث عَثْياً وعُيوثاً وعيثاناً: أفسد. ويقال: عاث في ماله: إذا أتلفه بالتّبذير[3] وأكثر ما يقال العيث في الفساد الّذى يُدْرك حسّا، والعِثِيّ فيما يُدْرَك حكما[4].

واتّقوا الّذى خلقـكم والجبلّة الأوّلين: واتّقوا أيّهـا القوم عـقاب ربّكم الّذى خلقكم وخلق الجبلّة الأوّلين. يعنى بالجبلّة الخلق الأوّلين[5].

لمّا كان قوم شعيب يطفّفون الكيل والوزن وينقصون النّاس حقوقهم ويقطعون الطّريق ويهدّدون الآخـرين ويتوعّدونهم بالشّرور فـقد أمرهم شعيبٌ عـليه السّلام بالمعروف ونهـاهم عن المنكر. إنّه يأمرهم بأن يوفوا الكيـل حال البيع كمـا يوفونه حال الشّراء وينهاهم أن يبخسوا النّاس أشياءهم ويهضموهم حقوقهم. كما يأمرهم بأن يزنوا بالميزان السّوّيّ حـال البيع كما يزنون به حـال الشّراء. وفي كلّ الأحوال هو ينهاهم عن ظلمـهم النّاس حقوقهم وحظوظهم وعن الإفسـاد في الأرض حسّاً ومـعنى. كمـا يأمـرهم بأن يتّقـوا الله تعـالى الّذى خلقـهم وخلق آباءهم الأوّلين والنّاس أجمـعين. إنّ الله تعالى الّذى له الخلق هو الّذى ينبـغى أن يكون له الأمر بأن يُعْبَد وحده لا شريك له، وأن يطاع فلا يُعْصَى، وأن يُشْكَر فلا يُكْفَر.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٦.

(٢) المعجم الوسيط: «عثا» ٢/ ٥٨٤.

(٣) المعجم الوسيط: «عاث» ٢/ ٦٣٩.

(٤) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «عَثِيَ» ٢/ ٤١٨.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٦.

قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ
مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ
ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾

كِسَفاً: قِطَعاً، وزناً ومعنى، جمع كِسْفة، قطعة، وزناً ومعنى[1] والكسفة القطعة من السّحاب والقطن ونحو ذلك[2].

تمادى قوم شعيبٍ عليه السّلام في غيّهم وقالوا لشعيبٍ عليه السّلام مثل ما قال قوم صالح عليه السّلام له عليه السّلام على جهة الخصوص. لقد قالوا لشعيبٍ عليه السّلام إنّما أنت واحدٌ من الأشخاص الّذين سُحِروا كثيراً وغلبت على قواهم العقليّة قوىً شرّيرةٌ خفيّة. وليس شعيبٌ عليه السّلام سوى واحدٍ من البشر مثلهم، يأكل ممّا يأكلون منه ويشرب ممّا يشربون منه فكيف يفضلهم بنعمة الرّسالة والنّبوّة! وهم وراء ذلك يعلنون على رءوس الأشهاد أنّهم يحسبونه عليه الصّلاة والسّلام واحداً من الكاذبين. وقد بلغت الوقاحة والقباحة بالقوم أن استعجلوه عليه السّلام عذاب الله تعالى كما استعجله كفّار مكّة بدلاً من أن يسألوا الله تعالى الهداية والعافية. إنّ قوم شعيبٍ عليه السّلام يستعجلون العذاب ويستهزئون به ويسألون شعيباً عليه السّلام أن يدعو الله تعالى كي يسقط عليهم قطعاً من السّماء فتهلكهم إن كان عليه السّلام صادقاً في زعمه أنّه رسول ربّ العالمين.

لقد كان الأَوْلى بالقوم أن يسألوا الله تعالى الهداية والرّحمة.

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «كسف» ٢/ ٥٥٧.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «كسف» ٢/ ٥٥٧.

قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

قال ربّي أعلم بما تعملون: الله أعلم بكم، فإن كنتم تستحقّون ذلك جازاكم به غير ظالم لكم[1].

فكذّبوه فأخذهم عذاب يوم الظّلّة: يعني بالظّلّة سحابةً ظلّلتهم فلمّا تتامّوا تحتها التهبت عليهم ناراً وأحرقتهم. وبذلك جاءت الآثار[2].

قال شعيبٌ عليه الصّلاة والسّلام إنّ ربّي الّذي خلقني وغمرني بنعمه أعلم بما تعملون وبما تستحقّون من جزاءٍ وعقابٍ على تكذيبكم واستهزائكم فعليكم أن تتوبوا توبةً نصوحاً وإلاّ كان العذاب أليماً والأخذ شديداً. لقد أصرّ القوم على تكذيبهم واستهزائهم فأخذهم عذاب يوم السّحابة الّتي أظلّتهم فظنّوها غيثاً ورحمةً فكانت ناراً وهلاكاً. وإنّ وسيلة عذاب القوم تأخذ بسبب من وسيلة عذاب عادٍ قوم هود عليه السّلام على نحو ما يُفْهَم من قول الحقّ جلّ وعلا عن عادٍ في سورة الأحقاف[3]: ﴿فلمّا رأواه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارضٌ ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريحٌ فيها عذابٌ أليم. تدمّر كلّ شيءٍ بأمر ربّها فأصبحوا لا يُرَى إلاّ مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين﴾ لقد كان العذاب عظيماً حقّاً وأليماً في ذلك الزّمن العصيب.

---

(١) تفسير ابن كثير ٦/ ١٧٠.

(٢) تفسير الطّبري ١٩/ ٦٧.

(٣) الآية ٢٤و٢٥.

إنّ في العذاب الأليم الّذى حـاق بالقوم الكافرين المستـهزئين لآيةً دالّةً على قدرة الله تعالى وعبرةً لكفّار مكّة المستـهزئين. وما كان أكثر أهل مكّة مؤمنين رغم كـلّ هـذه الآيات والعـبـر. وإنّ ربّك يا محـمّد لهو العـزيز القهّـار لأعدائه الرّحيم بالمؤمنين.

(٩)

(القرآن الكريم تنزيل السّميع العليم،
على قلب النّبيّ ﷺ لينذر به،
وليس قولَ كاهنٍ ولا شاعر)
الآيات (١٩٢-٢٢٧)

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ
ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ
مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ
عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾
فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

وإنّه لتنزيل ربّ العالمين: وإنّ هذا القرآن لتنزيل ربّ العالمين(١).

الرّوح الأمين: جبريل عليه السّلام(٢).

على قلبك: نزل به الرّوح الأمين فتلاه عليك يا محمّد حتّى وعيته بقلبك(٣).

مبين: يبين لمن سمعه أنّه عربيّ وبلسان العرب نزل(٤).

وإنّه لفى زبر الأوّلين: وإنّ هذا القرآن لفى كتب الأوّلين. وخرج مخرج العموم ومعناه الخصوص. وإنّما هو: وإنّ هذا القرآن لفى بعض زبر الأوّلين. يعنى أنّ ذكره وخبره في بعض ما نزل من الكتب على بعض رسله(٥) كالتّوراة والإنجيل(٦) والزُّبُر جمع زَبور(٧).

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٨.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٨.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٨.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٨.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٩.

(٦) الجلالين.

(٧) تفسير ابن كثير ١٦/ ١٧٣.

وَزَبَرْتُ الكتابَ كتبته كتابةً عظيمة. وكلّ كتابٍ غليظ الكتابة يقال له زبور[1] حتّى قام آخر النّبيّين عيسى عليه السّلام خطيباً في ملئه بالبشارة بأحمد عليه الصّلاة والسّلام[2] قال عزّ من قائل[3]: ﴿وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنّى رسول الله إليكم مصدّقاً لما بين يديّ من التّوراة ومبشّراً برسولٍ يأتى من بعدى اسمه أحمد﴾.

أو لم يكن لهم آيةً أن يعلمه علماء بنى إسرائيل: أو لم يكن لهؤلاء المعرضين عمّا يأتيك يا محمّد من ذكر من ربّك دلالةً على أنّك رسول ربّ العالمين أن يعلم حقيقة ذلك وصحّته علماء بنى إسرائيل[4] الّذين يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم الّتى يدرسونها. والمراد العدول منهم الّذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمّد ﷺ ومبعثه وأمّته، كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سَلاَم[5].

ولو نزّلناه على بعض الأعجمين: الأعجمون جمع الأعجم[6] والأعجم من في لسانه عُجْمة[7] ومن لا يدرى من العربيّة كلمة[8].

ما كانوا به مؤمنين: أنَفةً من اتّباعه[9].

وإنّ هذا القرآن الكريم، لتنزيل ربّ العالمين، أنزله عليك يا محمّد وأوحاه

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «زبر» ١/ ٢٧٩.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٦/ ٣٧٣.

(٣) سورة الصّفّ ٦.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٦٩.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ١٧٣.

(٦) الجلالين.

(٧) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «عجم» ٢/ ٤٢٠.

(٨) تفسير ابن كثير ٦/ ١٧٣.

(٩) الجلالين.

إليك. نزل به من السّماء مَلَكٌ كريم، هو الرّوح الأمين على الوحي، جبريل عليه السّلام، فتلاه عليك يا محمّد حتّى وعيته بقلبك، لتكون من المنذرين من كفر وعصى الله تعالى بالعذاب الأليم. لقد نزل القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍّ، مبينٍ عن معناه، مفصح عن فحواه، لأنّ الرّسول الكريم عربيّ، ولأنّه عزّ وجلّ بعثه من العرب. وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يرسل كلّ رسولٍ بلسان قومه كي يفهموا عنه. وهكذا كان القرآن الكريم بلسانٍ عربيٍّ مبين. ولمّا كان العرب أئمّة البيان وفرسان الفصاحة كانت معجزة محمّد ﷺ بيانيّة، ومن هنا انفرد القرآن الكريم بين سائر الكتب السّماويّة بأنّه المنهج والمعجزة معاً.

وإنّ القرآن الكريم مذكورٌ نزوله على خاتم النّبيّين، وأشرف المرسلين، عليهم جميعاً صلوات ربّ العالمين وسلامه، وموجودٌ نعته في الكتب السّماويّة السّابقة كالتّوراة والإنجيل، بدليل إسلام العلماء العدول من بنى إسرائيل حينما عرفوا محمّداً ﷺ بنعته الموجود عندهم في التّوراة والإنجيل، ومن هؤلاء عبد الله بن سلام، وكان أحد أحبار يهود.

والعجيب في حال كفّار مكّة أنّهم لا يستفيدون من دخول هذا الفريق من أهل الكتاب في الإسلام ولهذا يسأل السّياق كفّار مكّة ومن شاكلهم في إنكار: أو لم يكن علم علماء بنى إسرائيل العدول بحقيقة محمّد ﷺ والقرآن الكريم وإيمانهم به عليه الصّلاة والسّلام آيةً دالّةً على صدق محمّد ﷺ. إنّ كفّار مكّة يصرّون على الكفر رغم عجزهم عن الإتيان بمثل أقصر سورةٍ من سور القرآن الكريم وهم أرباب الفصاحة وأئمّة البيان، لأنّ القوم متعنّتون، وليس لأنّهم تنقصهم الحجّة.

وحينما يصرّ كفّار مكّة على الإعراض عن القرآن الكريم الّذى نزل بلسانٍ عربيٍّ مبين على النّبيّ العربيّ الكنانيّ القرشيّ الهاشميّ فمن باب الأحرى والأولى أن يصرّوا على الإعراض لو أنّ القرآن الكريم العربيّ المبين نزل على رجلٍ أعجميّ لا يكاد يبين. إنّ هذا لو حصل فإنّ كفّار مكّة لن يؤمنوا بهذا القرآن وكأنّ لسان حال القوم يقول: أقرآنٌ عربيّ ورسولٌ أعجميّ. وإلى هذا المعنى أشار قول الحقّ

جلّ وعلا: ﴿ولو نزّلناه على بعض الأعجمين. فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين﴾.

وإنّ إصرار كفّار مكّة على الإعراض عن القرآن الكريم سيتمّ حتماً كذلك لو أنّ ربّ العزّة والجلال أوحى إلى محمّد ﷺ النّبيّ العربيّ قرآناً بلسان العجم وليس بلسان العرب. لقد نصّ على هذه الحال قول الحقّ جلّ وعلا في سورة فصّلت[1]: ﴿ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصّلت اياته. ءاعجميٌّ وعربيّ. قل هو للّذين آمنوا هدىً وشفاءٌ والّذين لا يؤمنون في آذانهم وقرٌ وهو عليهم عمى. أولئك ينادَوْن من مكانٍ بعيد﴾.

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ
فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ
ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟
هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ
إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾
مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَآ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا
لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾

كذلك سلكناه في قلوب المجرمين: كما حَتَمْنا على هؤلاء أنّهم لا يؤمنون بهذا القرآن ولو نزّلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم كذلك نسلكه، التّكذيب والكفر في قلوب المجرمين. ويعنى بقوله: ﴿سلكناه﴾ أدخلنا[2].

بغتة: فجأة[3].

---

(١) الآية ٤٤.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧٠.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧١.

هل نحن مُنْظَرون: هل نحن مؤخّرٌ عنّا العذاب ومنسأٌ في آجالنا لنتوب وننيب إلى الله من شركنا وكفرنا بالله فنراجع الإيمان به وننيب إلى طاعته[1].

ما أغنى عنهم ما كانوا يمتّعون: أيّ شيءٍ أغنى عنهم التّأخير الّذى أخّرنا في آجالهم والمتاع الّذى متّعناهم به من الحياة إذ لم يتوبوا من شركهم[2].

ذكرى: عظةً لهم[3] مفعول لأجله عامله منذرون. ويجوز أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف تقديره هذه ذكرى. والجملة اعتراضيّة[4].

مثْل إدخالنا التكذيب به بقراءة الأعجميّ، أدخلنا التّكذيب به في قلوب كفّار مكّة المجرمين ومن شاكلهم بقراءة النّبيّ ﷺ للقرآن الكريم. إنّهم لا يؤمنون بالقرآن الكريم حتّى يروا العذاب الأليم عِيانا. وهذا العذاب إنّما يأتيهم فجأةً وهم لا يعلمون به ولا يشعرون. وإنّ جملة: ﴿فيأتيهم﴾ تومىء إلى استبعاد القوم مجيء العذاب. لأنّ جملة: «أتى» تستعمل في القرآن الكريم دليلاً على البعد. وحينما يأتيهم العذاب يقولون: هل نحن مؤخّرون لتوبةٍ أو مَعْذِرة! وحينما لا يأتيهم العذاب يستعجلونه على سبيل الاستهزاء بالرّسول الكريم والاستبعاد للعذاب الأليم.

أفرأيت أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم إن متّعنا أولئك الكافرين في الحياة الدّنيا ونسأنا لهم في الأجل العدد من السّنين، أيّ شيءٍ يغنى عنهم وينفعهم تمتّعهم ذلك العدد من السّنين. هل يصرف التّمتّع في الحياة الدّنيا العذاب عنهم أو يخفّفه. إنّهم بإمهال الله تعالى لهم ازدادت سيّئاتهم وآثامهم. فاستحقّوا العقاب الشّديد والعذاب الأكيد، وها هوذا العقاب ينزل بهم، والعذاب يحلّ بساحتهم.

إنّ الله تعالى لا يظلم مثقال ذرّة. وإنّ كلّ القرى الّتى أهلكها الله تعالى قد

---

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧١.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧١.

(٣) الجلالين.

(٤) الجدول في إعراب القرآن وصرفه ٩/ ٣٧٨.

أرسل لها من يعظها ويذكّرها، وحينما أصرّت على الكفر والتّكذيب أخذها عزّ وجلّ أخذ عزيزٍ مقتدر، فعلى كفّار مكّة أن يعوا تلك الدّروس وألاّ يظنّوا إمهال الله تعالى لهم إهمالا.

وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ
الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ
عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

وما ينبغى لهم: وما ينبغى للشّياطين أن يتنزلوا به عليه ولا يصلح لهم ذلك(١).

وما يستطيعون: وما يستطيعون أن يتنزّلوا به لأنهم لا يصلون إلى استماعه في المكان الّذى هو به من السّماء(٢).

إنّهم عن السّمع لمعزولون: إنّ الشّياطين عن سمع القرآن من المكان الّذى هو به من السّماء لمعزولون، فكيف يستطيعون أن يتنزّلوا به(٣) ولأنّهم بمعزلٍ عن استماع القرآن حال نزوله، لأنّ السّماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدّة إنزال القرآن على رسوله، فلم يخلص أحدٌ من الشّياطين إلى استماع حرفٍ واحدٍ منه، لئلاّ يشتبه الأمر. وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله(٤).

وما تنزّلت بالقرآن الكريم من السّماء الشّياطين، وما يصلح لهم ذلك التّنزيل

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧٢.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧٢.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧٢.

(٤) تفسير ابن كثير ٦/ ١٧٥.

ولا يليق بهم، وعلى سبيل الافتراض لو صلح لهم تنزيل القرآن الكريم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا. إنّ الشّياطين عن السّمع لمعزولون، وعن المكان الّذى به من السّماء لمطرودون، فأنىّ لهم الوصول إلى القرآن الكريم.

ويلاحظ أنّ الآيات الكريمات تنفى عن الشّياطين مجرّد القدرة على حمل القرآن الكريم والنّزول به من السّماء إلى الأرض. إنّ الشّياطين عاجزون عن الوصول إلى المكان من السّماء الّذى فيه القرآن الكريم، وهم وراء ذلك أعجز عن الإتيان بمثل هذا القرآن الكريم أو مثل أقصر سورة منه. وقد قال عزّ من قائل[1]: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجنّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعضٍ ظهيرا﴾ والمعروف أنّ الشّياطين والجنّ لمسمىً واحد. وإنّما صارا صنفين باعتبار الكفر والإيمان، فلا يقال لمن آمن من الجنّ إنّه شيطان[2].

وفي شأن العزل للشّياطين عن استراق السّمع، إليك هذا الحديث من صحيح البخارى في هذا المعنى: «عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس قال: انطلق رسول الله ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين[3] إلى سوق عكاظ[4] وقد حيل[5] بين الشّياطين وبين خبر السّماء، وأُرْسِلَتْ عليهم الشّهب. فرجعت الشّياطين فقالوا: مالكم؟

---

(١) سورة الإسراء ٨٨.

(٢) انظر هنا فتح البارى ٨/ ٦٧٥.

(٣) قاصدين.

(٤) موسمٌ معروفٌ للعرب، بل كان من أعظم مواسمهم. وهو نخلٌ في وادٍ بين مكّة والطّائف، وهو إلى الطّائف أقرب، بينهما عشرة أميال. وهو وراء قرن المنازل بمرحلة من طريق صنعاء اليمن. فتح البارى ٨/ ٦٧١.

(٥) حُجِز ومُنِعَ على البناء للمجهول.

فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السّماء، وأُرْسِلَتْ علينا الشّهب. قال[1]: ما حال بينكم وبين خبر السّماء إلاّ ما حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الأمر الّذى حدث؟ فانطلقوا فضربوا مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما هذا الأمر الّذى حال بينهم وبين خبر السّماء؟ قال: فانطلق الّذين توجّهوا نحو تِهامة[2] إلى رسول الله ﷺ بنخلة[3] وهو عامدٌ إلى سوق عكاظ وهو يصلّى بأصحابه صلاة الفجر. فلمّا سمعوا القرآن تسمّعوا له[4] فقالوا: هذا الّذى حال بينكم وبين خبر السّماء. فهنالك[5] رجعوا إلى قومهم فقالوا: يا قومنا: ﴿إنّا سمعنا قرآناً عجباً. يهدى إلى الرّشد فآمنّا به ولن نشرك بربّنا أحدا﴾[6] و أنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه ﷺ[7]: ﴿قل أوحي إليّ أنّه استمع نفرٌ من الجنّ﴾ وإنّما أُوحِي إليه قولُ الجنّ[8].

ونستطيع أن نفهم من مجموع ما قال ابن حجر في فتح البارى[9] في شرح الحديث الشّريف أنّ ربّ العزّة والجلال كان يرسل الشّهب على الشياطين الّذين يسترقون السّمع، فتصيب من شاء الله تعالى أن تصيبه. وكان ذلك قبل بعثة

---

(١) إبليس. فتح البارى ٨/ ٦٧٤.

(٢) تِهامة: بكسر المثنّاة اسمٌ لكلّ مكانٍ غير عالٍ من بلاد الحجاز. فتح البارى.

(٣) نخلة: بفتح النّون وسكون المعجمة: موضعٌ بين مكّة والطّائف. قال البكرى: على ليلةٍ من مكّة. فتح البارى.

(٤) أي قصدوا لسماع القرآن وأصغوا إليه. فتح البارى.

(٥) هو ظرف مكان. فتح البارى.

(٦) سورة الجنّ ١, ٢.

(٧) سورة الجنّ ١.

(٨) فتح البارى ٨/ ٦٦٩ حديث رقم ٤٩٢١.

(٩) ٨/ ٦٧٠-٦٧٥.

النّبيّ ﷺ. وبعد البعثة اشتدّ المنع وإرسال الشّهب ومع ذلك ظلّت الشّياطين تحاول استراق السّمع، وربّما صحّ للشّيطان شيءٌ قليلٌ فأتبعه الشّهاب. وربّما تمكّن الشّيطان من إلقاء الكلمة الّتي استرق قبل الإصابة: «ثمّ لا يبالي المختطف بالإصابة لما طُبِع عليه من الشّرّ»[1] وإنّ: «الشّياطين مع شدّة التّغليظ عليهم في ذلك بعد المبعث لم ينقطع طمعهم في استراق السّمع في زمن النّبيّ ﷺ فكيف بما بعده»[2] وهذا معناه أنّ محاولات الشّياطين مستمرّة، وإصابة الشّهب لهم بإذن الله تعالى دائمة.

فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ
مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ
جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى
بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى
يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

وأنذر عشيرتك الأقربين: العشيرة أهل الرّجل وأقاربه الّذين يتكثّر بهم[3] وهم بنو هاشم وبنو المطّلب وقد أنذرهم جهاراً. رواه البخاري ومسلم[4].

الّذى يراك حين تقوم: قال ابن عبّاس يعني إلى الصّلاة[5].

---

(١) فتح الباري ٨/ ٦٧٣.

(٢) فتح الباري ٨/ ٦٧٣.

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهاني: «عشر» ٢/ ٤٣٦.

(٤) الجلالين وانظر الأحاديث في تفسير ابن كثير ٦/ ١٧٦ فما بعدها.

(٥) تفسير ابن كثير ٦/ ١٨٢

وتقلّبك في السّاجدين: التّقلّب: التّصرّف[1] أي ويرى تقلّبك مع السّاجدين في صلاتهم معك حين تقوم معهم وتركع وتسجد[2].

فلا تعبد يا محمّد مع الله تعالى إلهاً آخر فتكون من المعذّبين، بل أفرده بالعبادة وحده لا شريك له، وأنذر يا محمّد أهلك وقومك الأقربين، وقد فعل النّبيّ ﷺ ذلك، واخفض يا محمّد جناحك وألن جانبك لمن اتّبعك من المؤمنين. فإن عصاك أهلك وقومك فأشركوا وعملوا السّيّئات فقل لهم إنّي بريءٌ ممّا تعملون من سيّئات وتأتون من ذنوب.

وفي كلّ الأحوال عليك يا محمّد أن تتوكّل على الله تعالى العزيز في ملكه القهّار للكافرين، الرّحيم بالمؤمنين. ويلاحظ مجيء هذين الاسمين للذّات العليّة: ﴿العزيز الرّحيم﴾ وهما الاسمان اللّذان ختمت بهما كلّ أقسام السّورة الكريمة السّابقة. إنّ العزّة والرّحمة تجلّتا في حقّ الكافرين والمؤمنين على التّوالي. لقد كان من نصيب الكافرين قهر العزيز جلّ وعلا لهم، ومن نصيب المؤمنين رحمة الله تعالى لهم ورأفته بهم.

إنّ الله تعالى العزيز الرّحيم يرى المصطفى ﷺ حين يقوم لأداء الصّلاة منفرداً حتّى تكاد تنفطّر قدماه عليه الصّلاة والسّلام، ويرى تقلّبه عليه الصّلاة والسّلام وتصرّفه وهيئته في كلّ أحوال الصّلاة مع الجماعة إماماً للمصلّين، قائمين وقاعدين، راكعين وساجدين. إنّ الله تعالى هو السّميع لكلّ قول، العليم بكلّ نيّة وفعل، فلا يخفى على الله تعالى شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

وممّا جاء في إنذار النّبيّ ﷺ عشيرته الأقربين الحديث الّذي رواه البخاريّ في صحيحه. عن سعيد بن جبير عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال: لمّا نزلت: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ صَعِد النّبيّ ﷺ الصّفا[3] فجعل ينادي: يا بني فِهر،

---

(١) مفردات الرّاغب الأصفهاني: «قلب» ٢/ ٥٣٢.

(٢) تفسير الطّبري ١٩/ ٧٧.

(٣) الصّفا الجبل الّذي يبدأ منه السّعي والمروة الجبل الّذي ينتهي عنده.

يا بنى عَديّ ـ لبطون قريش ـ حتّى اجتمعوا، فجعل الرّجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ماهو. فجاء إبو لهبٍ وقريشٌ فقال: أرأيتكم لو أخبرتكم أنّ خيلاً بالوادى تريد أن تُغير عليكم أكنتم مصدّقيّ؟ قالوا: نعم، ما جرّبنا عليك إلاّ صدقا. قال: فإنّى نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد. فقال أبو لهب: تبّاً لك سائرَ اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تبّت يدا أبى لهب وتبّ. ما أغنى عنه ماله وما كسب﴾[1].

وإليك هذا الحديث الآخر في المعنى نفسه. عن أبى هريرة قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله: ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ قال: يا معشر قريش ـ أو كلمةً نحوها ـ اشتروا أنفسكم، لا أغنى عنكم من الله شيئا. يا بنى عبد مناف، لا أغنى عنكم من الله شيئا. يا عبّاسُ بنَ عبد المطّلب، لا أغنى عنكَ من الله شيئا. ويا صفيّة عمّةَ رسول الله ﷺ، لا أغنى عنكِ من الله شيئا. ويا فاطمة بنتَ محمّد ﷺ، سلينى ما شئتِ من مالى، لا أغنى عنكَ من الله شيئا[2].

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾

تنزّل على كلّ أفّاكٍ أثيم: الأفّاك: الكذوب في أقواله[3] والإفك كلّ مصروفٍ عن وجهه الّذى يحقّ أن يكون عليه. وقوله تعالى[4]: ﴿قاتلهم الله أنىّ

(١) فتح البارى ٨/ ٥٠١ حديث رقم ٤٧٧٠ وصحيح البخارى ٦/ ١٤٠.

(٢) فتح البارى ٨/ ٥٠١ حديث رقم ٤٧٧١ وصحيح البخارى ٦/ ١٤٠.

(٣) تفسير ابن كثير ٦/ ١٨٣.

(٤) سورة التّوبة ٣٠.

يؤفكون﴾ أي يُصْرَفون عن الحقّ في الاعتقاد إلى الباطل، ومن الصّدق في المقال إلى الكذب، ومن الجميل في الفعل إلى القبيح[1] والأثيم: الفاجر في أفعاله[2].

يلقون السّمع: يلقى الشّياطين السّمع، وهو ما يسمعون ممّا استرقوا سمعه من حين حدث من السّماء، إلى كلّ أفّاكٍ أثيم من أوليائهم من بنى آدم[3] وهم الكهنة[4].

وأكثرهم كاذبون: وأكثر من تنزل عليه الشّياطين كاذبون فيما يقولون ويخبرون[5].

هل أنبّئكم أيّها النّاس على من تتنزّل الشّياطين وعصاة الجنّ؟ تتنزّل على كلّ كثير الكذب في أقواله من النّاس، كثير الفجور في أفعاله. يلقى الشّياطين ما استرقوا سمعه من السّماء إلى الكهنة والسّحرة من البشر. وأكثر الكهنة والسّحرة كاذبون في أقوالهم لأنّهم يضيفون إلى الكلمة الّتى يسمعونها من الشّيطان ألف كَذْبة، كما جاء في الحديث الصّحيح.

وإليك هذا الحديث من صحيح البخارى، وهو خير ما يبيّن معنى الآيات الكريمات. قال أبو هريرة إنّ نبيّ الله ﷺ قال: إذا قضى الله الأمر في السّماء ضربت الملائكة بأجنحتها خُضْعاناً[6] لقوله كأنّه سلسلةٌ على

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «أفك» ١/ ٢٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٦/ ١٨٣.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧٧.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧٧.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧٧.

(٦) خُضْعانا بضمّ أوّله وسكون ثانيه مصدر بمعنى خاضعين. وفى رواية خَضَعاناً بفتحتين من الخضوع. انظر فتح البارى ٨/ ٥٣٨.

صفوان[1]. فإذا فُزّع[2] عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربّكم؟ قالوا للّذى قال: الحقّ وهو العليّ الكبير، فيسمعها مسترق السّمع[3] ومسترق السّمع هكذا بعضه فوق بعض. ووصف سفيان[4] بكفّه فحرفها[5] وبدّد بين أصابعه[6] فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَنْ تحته، ثمّ يلقيها الآخر إلى من تحته، حتّى يلقيها على السّاحر أو الكاهن. فربّما أدرك الشّهابُ قبل أن يلقيها، وربّما ألقاها قبل أن يدركه[7] فيكذبُ معه مائة كَذْبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا كذا وكذا، فيُصَدَّق بتلك الكلمة الّتى سمع من السّماء[8].

---

(١) المعنى كأنّه جرّ السّلسلة من الحديد على الصّفوان الّذى هو الحجر الأملس. والصّوت النّاجم عن ذلك هو الصّلصلة. انظر فتح البارى ٨/ ٥٣٨.

(٢) فُزّع عن قلوبهم: كُشِف عنها الفزع بالإذن في الشّفاعة. انظر تفسير الجلالين في تفسير الآية ٢٣ من سورة سبأ.

(٣) في رواية أخرى: «مسترقو السّمع» انظر فتح البارى ٨/ ٥٣٨.

(٤) هو سفيان بن عيينة راوى الحديث. فتح البارى ٨/ ٥٣٨.

(٥) فحرفها: فأمالها.

(٦) أي فرق بين أصابعه. وفي رواية أخرى: «ووصف سفيان بيده ففرج بين أصابع يده اليمنى نصبها بعضها فوق بعض» فتح البارى ٨/ ٥٣٨.

(٧) يقول ابن حجر: «قوله: فربّما أدرك الشّهاب الخ، يقتضى أنّ الأمر في ذلك يقع على حدٍّ سواء. والحديث الآخر يقتضى أنّ الّذى يسلم منهم قليلٌ بالنّسبة إلى من يدركه الشّهاب» فتح البارى ٨/ ٥٣٨.

(٨) فتح البارى ٨/ ٥٣٧ حديث رقم ٤٨٠٠ وصحيح البخارى ٦/ ١٥٢.

وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ
يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ
بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

والشّعراء يتّبعهم الغاوون: شعراء المشركين يتبعهم غواة النّاس ومردة الشّياطين وعصاة الجن[1] والغاوون: أهل الغي[2] والغيّ جهلٌ من اعتقادٍ فاسد، وذلك أنّ الجهل قد يكون من كون الإنسان غير معتقد اعتقاداً لا صالحاً ولا فاسدا، وقد يكون من اعتقاد شيءٍ فاسد، وهذا النّحو الثّانى يقال له غي[3].

ألم تر أنّهم في كلّ وادٍ يهيمون: ألم تر يا محمّد أنّهم، يعنى الشّعراء، في كلّ وادٍ يذهبون كالهائم على وجهه على غير قصد، بل جائراً عن الحقّ وطريق الرّشاد وقصد السّبيل. وإنّما هذا مثلٌ ضربه الله لهم في افتنانهم في الوجوه الّتى يفتنّون[4] فيها بغير حقّ، فيمدحون بالباطل قوماً ويهجون آخرين كذلك بالكذب والزّور[5] والهائم الشّديد العطش في الأصل. والهُيام داءٌ يأخذ الإبل من العطش. ويُضْرَب به المثل فيمن اشتدّ به العشق. قال تعالى: ﴿ألم تر أنّهم في كلّ وادٍ يهيمون﴾ أي في كلّ نوعٍ من الكلام يَخْلون في المدح والذّمّ وسائر الأنواع

(١) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧٨.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧٨.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى: «غوى» ٢/ ٤٧٨.

(٤) افتنّ في القول: سلك به أفانين وأنواعا.

(٥) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧٨.

المختلفات. ومنه الهائم على وجهه، المخالف للقصد، الذّاهب على وجهه. وهام ذهب في الأرض واشتدّ عشقه وعَطِش[1].

وأنّهم يقولون ما لا يفعلون: قال ابن عبّاس: أكثر قولهم يكذبون. وعنى بذلك شعراء المشركين[2].

وانتصروا من بعد ما ظلموا: وانتصروا ممّن هجاهم من شعراء المشركين ظلماً بشعرهم وهجائهم إيّاهم وإجابتهم عمّا هجوهم به[3].

وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون: وسيعلم الّذين ظلموا أنفسهم بشركهم بالله من أهل مكّة أيّ منقلبٍ ينقلبون، يقول: أيّ مرجعٍ يرجعون إليه وأيّ معادٍ يعودون إليه بعد مماتهم، فإنّهم يصيرون إلى نارٍ لا يطفأ سعيرها ولا يسكن لهبها[4].

والشّعراء المشركون الظّالمون يتبعهم ويقفو أثرهم من كان على شاكلتهم من غواة النّاس ومردة الشّياطين وعصاة الجنّ. وهكذا ينجذب شبيه الشّيء إليه، وتقع الطّيور على أشكالها، ويجرى على ألسنة مشركى الشّعراء وظاليهم ساقط القول، وفاسد المعنى، وهكذا يوحى بعض الشّياطين إلى بعض زخرف القول وغرور المعنى. ودليلاً على أنّ هذا الفريق من الشّعراء تسيّره الأهواء والأطماع وليس المبادىء والقيم أنّك يا محمّد ويا أيها الإنسان تراهم في كلّ وادٍ من أودية القول يخوضون، وربّما مدحوا الشّخص اليوم وذمّوه غداً، وربّما مدحوا من يستحقّ الذّمّ، وذمّوا من يستحقّ المدح، وأسرفوا في المبالغة في حال الرّضا والغضب، ولا يدفعهم إلى كلّ ذلك سوى جموح العاطفة واندفاع الشّعور. ووراء ذلك فإنّ هؤلاء الغاوين من الشّعراء يقولون ما لا يفعلون، ويهيجون الآخرين على إتيان

---

(١) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى: «هيم» ٢/ ٧١١.

(٢) تفسير الطّبرى ١٩/ ٧٩.

(٣) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٠.

(٤) تفسير الطّبرى ١٩/ ٨٠.

الفواحش، ويجاهرون ويفتخرون بارتكاب الرّذائل والآثام.

وفي مقابل هؤلاء الشّعراء المشركين الظّالمين الشّعراء المؤمنون المتّقون. إنّ هؤلاء الموهوبين من الشّعراء المؤمنين لهم نعوتهم الخاصّة بهم والّتى تقابل صفات الشّعراء المشركين الظّالمين. وهذه النّعوت أربعة.

وأوّل هذه النّعوت الإيمان. إنّهم يؤمنون بالله تعالى ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمّد ﷺ رسولاً، وبالقرآن الكريم منهاجاً.

وثانى هذه النّعوت عمل الصّالحات. إنّ الإيمان إذا كان اعتقاداً بالجَنان بمعنى القلب، ونطقاً باللّسان، فإن الدّليل عليه العمل بالأركان بمعنى الجوارح. إنّ هؤلاء الشّعراء المؤمنين يعملون الصّالحات قولاً وعملاً، ويريدون بأعمالهم الصّالحة بمقياس الإسلام وجه ربّهم الأعلى، وبذلك يحقّق هؤلاء الشّعراء الشّرطين الضّروريّين كي يتفضّل الله تعالى بقبول تلك الأعمال الصّالحة. الشّرط الأوّل شرط الإخلاص، وبذلك يتحقّق الشّقّ الأوّل من الشّهادة، أعنى شهادة ألاّ إله إلاّ الله. والشّرط الآخر شرط الصّواب، وبذلك يتحقّق معنى الشّقّ الآخر من الشّهادة، أعنى شهادة أنّ محمّداً رسول الله. فهؤلاء الشّعراء يطبّقون سنّة المصطفى ﷺ المبيّنة للقرآن الكريم.

وثالث هذه النّعوت ذكر الله تعالى ذكراً كثيراً في الصّلاة وفى غير الصّلاة من تسبيح وتحميد وتهليلٍ وتكبيرٍ وما إلى ذلك. ولسهولة الذّكر وُصِفَ بأنّه ذكرٌ كثير. والذّكر رمزٌ للقيام بسائر العبادات، والعبد يتّجه بالذّكر إلى الله تعالى مباشرة.

ورابع هذه النّعوت الانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم. ويلاحظ أنّ الشّعراء المشركين الظّالمين هم الّذين يبدأون بالظّلم والعدوان ويبغون على الشّعراء المؤمنين المتّقين. إنّ واجب هؤلاء الشّعراء المؤمنين في حال اعتداء الظّالمين عليهم أن يبادلوا الظّالمين الرّدّ بسلاح الكلمة بل بكلّ أنواع السّلاح. وهكذا لا يقف الشّعراء المؤمنون سلبيّين بل إيجابيّين، ولكنّهم لا يبدأون بالاعتداء. وفي حال الاعتداء

عليهم هم ينتصرون لأنفسهم، ويعملون بكلّ الوسائل المشروعة من أجل الحصول على النّصر بإذن الله تعالى.

وإنّ هذه النّعوت الّتى يتحلّى بها الشّعراء المؤمنون المتّقون يتخلّى عنها الشّعراء المشركون الظّالمون. إنّهم لا يؤمنون ولا يعملون الصّالحات ولا يذكرون الله تعالى ويظلمون المؤمنين ويعتدون عليهم.

وإذا كان الشّعراء المؤمنون ينتصرون من الشّعراء المشركين الّذين ظلموهم فإنّ السّورة الكريمة تختتم بتهديد هؤلاء المشركين الظّالمين بالمنقلب السّيّىء الّذى سيصيرون إليه بعد مماتهم، إنّه النّار وبئس القرار.

ممّا سبق يتبيّن أنّ القرآن الكريم إنّما عاب الغاوين من الشّعراء ومن لفّ لفّهم من أشياعهم وأوليائهم من شياطين الإنس والجنّ. إنّ هذا الفريق من الشّعراء لا يرقب في مؤمنٍ إلاّ ولا ذمّة. وحينما يتّصف هؤلاء الشّعراء بالكفر وعمل السّيّئات يتأكّد في حقّهم الأخذ في كلّ أودية الكلام بالباطل والكذب، والوصف بأنّهم يقولون ما لا يفعلون، إلى حدّ المجاهرة والافتخار بإتيان المنكرات.

ثالثاً :

سـورة النّمل

حتى نهاية الجزء التّاسع عشر

سُورَةُ النَّمْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم
بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ
أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ
وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن
لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم
مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا
جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ
فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ
إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ
سُوٓءٍ فَإِنِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ
مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِى تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ
﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾

وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ
وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾
وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ
وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ
لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾
حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟
مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ
نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا
تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾
وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ
ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ
أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ
أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾

إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا
عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن
دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ
فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ
لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ
أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا
فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ
ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾
قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ
تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ
فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً
أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾
وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ
ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ
بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾
قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى
عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ
بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ
لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا
نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ
أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ
﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ
﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن
سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى
ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا
هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ
بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ
تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ
عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ
رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟
تَقَٰسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا
مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا
وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ
﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ
أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾

بين يدي التّفسير

(١)

((القرآن الكريم الّذى أوحاه الحكيم العليم هدىً للمؤمنين وعمىً على الكافرين))

الآيات (١-٦)

تبدأ السّورة الكريمة بالحروف المقطّعة وتتحدّث عن القرآن الكريم على الفور كغيرها من السّور الّتى تبدأ بهذه الحروف المقطّعة. وفي حديث كلّ السّور التّسع والعشرين الّتى تبدأ بهذه الحروف المقطّعة عن القرآن الكريم فوراً أو على التّراخى قوّةٌ للرّأي الّذى يذهب إلى أنّ هذه الحروف المقطّعة امتدادٌ للتّحدّى بالقرآن الكريم. إنّ هذه الحروف المقطّعة كأنّها تقول: إن هذا القرآن الكريم المعجز تتألّف كلماته من الحروف الّتى تتألّف منها الكلمات الّتى تنقل أفكار العرب ومشاعرهم، ولكنّ القرآن الكريم نسيجُ وَحْدِه. تلك الآيات الكريمات الرّفيعة السَّنا والسّناء آيات القرآن الكريم، وآيات كتابٍ عزيزٍ مبينٍ عن معانيه ومراميه. إنّه هدىً من الضّلالة وبشارةٌ للمؤمنين بالله تعالى ورسوله الكريم وقرآنه المجيد ودين الإسلام العظيم، الّذين يقيمون الصّلاة بأركانها وشروطها، ويؤتون الزّكاة الّتى فرضها الله تعالى للفئات الثّمان في أموال الأغنياء، وهم بالآخرة هم قد بلغوا مرتبة الإيقان واجتهدوا في عمل الصّالحات، طمعاً في ثواب ربّهم الأعلى جلّ وعلا.

أمّا الّذين لا يؤمنون بالآخرة وبذلك لا يؤتون الزّكاة ولا يقيمون الصّلاة ولا يؤمنون بالله تعالى ورسوله الكريم وقرآنه العظيم فإنّهم، وقد انصرفوا، زادهم الله تعالى انصراف قلوبٍ وعمى بصائر، وزيّن عزّ وجلّ لهم أعمالهم السّيّئة فرأوها حسنةً فهم في حَيْرتهم يتردّدون وفي عمى بصائرهم يتقلّبون. إنّ لأولئك الكافرين الصّادّين عن سبيل الله تعالى سوء العذاب في الأولى والخسران المبين في الآخرة. وإنّ هذا القرآن الكريم الّذى يهدى المؤمنين إلى الصّراط المستقيم ويهوى بالكافرين في قاع الجحيم قد تلقّاه محمّد بن عبد الله ﷺ بواسطة مَلَكٍ كريم هو جبريل

عليه السّلام من عند الله تعالى، الحكيم في صنعه وتدبيره وتقديره وكلّ شيء، العليم الّذى أحاط بكلّ شيءٍ علماً.

(٢)

((موسى عليه السّلام وآياته التّسع، وفرعون وقومه الفاسقون))

الآيات (٧-١٤)

ما أكثر أوجه الشّبه بين ملابسات كلٍّ من الدّعوتين المحمّديّة والموسويّة، وها هي ذى السّورة الكريمة تومىء إلى ذلك بتحوّلها إلى الحديث عن موسى عليه السّلام وقومه، وذلك على غرار الكثير من سور القرآن الكريم الّتى تحدّثت عن الرّسولين الكريمين معاً. اُذكر يا محمّد حين قال موسى بن عمران لأهله وقد تاه في ليلة شاتيةٍ مظلمةٍ في شبه جزيرة سيناء في طريقه من مدين إلى مصر: إنّى أبصرت ناراً سأذهب إليها وآتيكم منها بخبرٍ عن الطّريق الصّحيح إلى مصر أو آتيكم بشعلةٍ من النّار متأجّجة أقتبسها وأستلّها من تلك النّار الّتى أبصر، لعلّكم تستدفئون في هذه اللّيلة الباردة المظلمة. فلمّا جاء موسى عليه السّلام النّار نودي أن بورك نور الله تعالى في النّار وبورك من حول النّار من الملائكة الأطهار، وتنزيهاً لله تعالى ممّا ألحقه به الظّالمون ممّا لا يليق بجلاله وعظمته سبحانه. يا موسى إنّى أنا الله تعالى العزيز في ملكى القهّار لمن عصانى، الحكيم في صنعى وتقديرى وتدبيرى. وألق يا موسى عصاك الّتى في يدك اليُمْنى ففعل فلمّا رآها تهتزّ وتتحرّك وتضطرب كأنّها الأفعى العظيمة فرّ موسى مدبراً ولم يلتفت وراءه بل أصعد في الأرض لا يَلْوِى على شيء. قال الله تعالى: يا موسى لا تخف إنّي لا يخاف لديّ المرسلون الّذين أصطفيهم بنعمة الرّسالة بل يأمنون ويطمئنّون. لكن من ظلم نفسه بالشّرك وارتكاب المعاصى فإنّه يخاف عذابى وانتقامى، أمّا من بدّل حُسْناً بعد سوء، وعمل الصّالحات إثر السّيّئات، وتاب توبةً نصوحاً فإنّى أغفر ذنبه

وأستره ولا أفضحه، وأشمله برحمتي الّتي وسعت كلّ شيءٍ وحيّ.

(٣)

((سليمان بن داود عليهما السّلام وملكة سبأ))

الآيات (١٥-٤٤)

ولقد آتى الله سبحانه وتعالى داود وابنه سليمان عليهما السّلام علماً لدنّيّا، وقالا: الحمد لله تعالى الّذى فضّلنا بنعمه العظيمة على كثيرٍ من عباده المؤمنين. واصطفى الله تعالى إلى جواره داود عليه السّلام، وورث سليمان عليه السّلام أباه داود عليه السّلام العلم الّذى آتاه الله تعالى إيّاه في حياة أبيه، والملك الّذى خصّه عزّ وجلّ به دون سائر إخوته. وقال سليمان عليه السّلام مشيراً إلى بعض نعم الله تعالى عليه: يا أيّها النّاس قد علّمَنا الله تعالى كلام الطّير وآتانا من كلّ شيءٍ من الخيرات. إنّ هذا لهو الفضل الّذى يُبين لكلّ من تدبّره أنّ الله تعالى خصّنا به، فله جلّ وعلا وحده دون سواه الحمد والمنّة. وجُمِع لسليمان عليه السّلام جنوده من الجنّ والإنس والطّير فهم يُرَدّ أوّلهم على آخرهم في انضباطٍ وحسن نظام دليل الطّاعة المطلقة والخضوع التّامّ. حتّى إذا أتى الجيش الضّخم على وادى النّمل قالت نملةٌ ناصحةً أخواتها: يا أيّها النّمل ادخلوا مساكنكم لا يقتلنّكم ويكسرنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم ولا يعلمون الأذى الّذى أوصلوه لكم. فتبسّم سليمان عليه السّلام ضاحكاً من قول النّملة النّاصح البرىء وسأل ربّه عزّ وجلّ الّذى خصّه بالكثير من النّعم ومنها تعليم الله تعالى إيّاه منطق النّمل ودعاه أن يلهمه الشّكر له عزّ وجلّ على نعمه العظيمة الّتى أنعم بها عليه وعلى والديه، وفي مقدّمتها نعمة الإسلام لله تعالى ربّ العالمين، وأن يوفّقه كي يعمل بإخلاص الصّالحات الّتى يرضاها عزّ وجلّ، وأن يدخله برحمته في عباده الصّالحين ويلحقه بهم. ويلاحظ هنا التّواضع الّذى فطر عزّ وجل عليه هذا النّبيّ الكريم المصطفى.

إنّه يسأل الله تعالى أن يلحقه بالصّالحين وقد أنعم الله تعالى عليه بنعمة النّبوّة، فضلاً منه عزّ وجلّ ونعمة.

وإنّ سليمان عليه السّلام القائد الحازم ليتفقّد جيشه الضّخم ويتعهّده ويتعرّف فُقدان الهدهد فيطرح سؤالين يترتّب آخرهما على أوّلهما ويفيد أوّلهما احتمال وجود الهدهد ولكنّ سليمان عليه السّلام لا يراه لسبب من الأسباب، ويرجّح آخرهما احتمال غياب الهدهد وعدم وجوده. وحينما تأكّد سليمان عليه السّلام من غياب الهدهد وتخلّفه عن واجبه والمهمّة المنوطة به هدّد الهدهد بالعذاب الشّديد أو القتل، في ضوء السّبب غير الوجيه الّذى من أجله تلهّي به عن واجبه. وإنّ الّذى يدفع عن الهدهد العذاب والقتل العذر الّذى يبين لمن تدبّره أنّه مضطرٌّ لأن يغيب.

فلبث الهدهد وقتاً غير طويل، وجاء إلى موقعه، وسأله سليمان عليه السّلام عن عذره في التّخلّف عن عمله والتّقصير في واجبه، فقال الطّائر الصّغير لسليمان عليه السّلام الّذى آتاه الله تعالى ملكاً لا ينبغى ولا يصحّ لأحد من بعده وعلماً لدنّياً: لقد أحطت أنا الهدهد علماً بما لم تحط به علماً أيّها النّبيّ الكريم والملك العظيم، وجئتك هنا في فلسطين من سبأ في اليمن بخبرٍ جديدٍ مفيدٍ أكيد. إنّى وجدت امرأةً تملكهم ولها سريرُ مُلْكٍ عظيم. وجدتها وقومها يعبدون الشّمس ويسجدون لها من دون الله تعالى، وزيّن لهم الشّيطان الرّجيم سوء أعمالهم، فصدّهم عن الطريق القويم فهم لا يهتدون سبيلا. لقد زيّن الشّيطان الرّجيم لهم أعمالهم لئلاّ يسجدوا لله تعالى الّذى يخرج المخبوء في السّماوات كالماء وفي الأرض كالنّبات، ويعلم ما نخفى وما نعلن. إنّه الله الّذى لا إله إلاّ هو ربّ العرش الأعظم من كلّ عرشٍ للبشر وسرير ملك.

إنّ النّبيّ الكريم والملك العظيم سليمان عليه السّلام لا يستنكف أن يعلم الطّائر ما لم يعلّمه الله تعالى إيّاه، ويهتمّ لتلك المملكة الّتى يعبد أفرادها الشّمس، ويشعر في أعماقه بأنّ واجبه يقتضيه أن تبلغ دعوة الإسلام تلك البلاد وترفرف راية التّوحيد بإذن الله تعالى على تلك الأصقاع النّائية، ويأخذ عليه السّلام ذلك النّبأ

مأخذ الجدّ رغم احتمال كذب الهدهد فيه، فيتثبّت عليه السّلام من صحّة النّبأ ويتروّى: ﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ ويقرن عليه السّلام الحزم في شأن المشركين بالحِلْم في شأن الهدهد. وها هو ذا عليه السّلام يأمر الهدهد بأن يذهب بكتابه ذى الإيجاز والإعجاز إلى أولئك المشركين ويتنحىّ عنهم، وينظر ماذا يكون جوابهم. ويفعل الهدهد ما أمره سليمان عليه السّلام به، ويوصل الكتاب إلى بلقيس ملكة سبأ في اليمن الّتى تقرأ الكتاب وتفهمه، تتأمّله وتتدبّره، والّتى يدلّ حسن تصرّفها على ذكاءٍ وحُنْكة. إنّها تنادى ملأها وأهل الشّرف في مجلسها، وتخبرهم بوصول كتابٍ إليها، وتصف ذلك الكتاب بأنّه كريم، لكرم مرسله. لقد تأكّد لها ذلك من شكل الكتاب ومن مضمونه. وتقرأ لهم الكتاب الوجيز العزيز: ﴿إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرّحمن الرّحيم. ألاّ تعلوا عليّ وأتونى مسلمين﴾ ونستطيع أن نفهم أنّ في هذا الكتاب شيئاً من الحذف المفهوم ضمناً، وكأنّ أصل الكتاب: بسم الله الرّحمن الرّحيم. من سليمان عبد الله ورسوله إلى الملكة بلقيس: ﴿ألاّ تعلوا عليّ وأتونى مسلمين﴾.

وانظر إلى تواضع سليمان عليه السّلام وأسلوبه الحكيم في الدّعوة إلى الله تعالى. إنّه في ثقة المعتزّ بالله تعالى وحده ينهى القوم المشركين عن التّعالى عليه مع أنّه يخاطب الملكة المشركة أساساً. إنّه ينهاهم عن التّعالى والتّكبّر عليه وأن يتطامنوا ويلينوا كي يلتقوا مع سليمان في نصف الطّريق على دين الإسلام بإذن الله تعالى. وبعد أن أعطى سليمان عليه السّلام الوسيلة حقّها، أعنى شخصه الكريم عليه الصّلاة والسّلام الّذى يدعو المشركين إلى الله تعالى، يتحوّل عليه السّلام إلى الغاية بصريح العبارة، وذلك بأن يأتوه مسلمين أساساً بمعنى طائعين أوّلاً، مسلمين لله تعالى ربّ العالمين آخراً. ويصحّ أن يفهم المشركون الهدف الأوّل لأنّهم يجهلون الهدف الآخر تماماً، في حين يريد عليه السّلام الهدفين معاً على الحقيقة، الخضوع والدّخول في دين الإسلام.

وتستشير ملكة سبأ ملأها وتطلب منهم المشورة الّتى تنزّلها منزلة الفتيا

لخطورة المسألة وتبيّن لهم أنّها لم تكن لتقضي أمراً حتّى يشهدوه ويحضروه. ويبادلها الملأ احتراماً باحترام، بعد أن يبيّنوا لها قدرتهم على القتال، وعظيم بلائهم فيه. إنّ الأمر إليها فإن شاءت قاتلت سليمان وإن شاءت هادنته.

ومن الجائز أن تكون الملكة قد وجدت الكتاب، فوق عرشها مثلاً، ومن الجائز أن يكون الهدهد قد ألقى الكتاب في حِجْرها وهي على عرشها وترى الهدهد. وسواءٌ رأت الملكة الرّسول أم لم تره فإنّها في كلتا الحالتين تفهم أنّ وصول الخطاب إليها أمرٌ عجيب. إنّها إن لم تر الهدهد فهي في حيرةٍ من الرّسول الّذى لم تره والّذى وصل إلى عرشها. وإن هي رأت الهدهد فهذا أمرٌ لا يقلّ غرابةً عن سابقه.

لقد أدركت الملكة بفطنتها أنّها تتعامل مع ملكٍ غير عاديّ، فليس من الحكمة أن تغامر بكفحه، بل عليها أن تتبيّن جليّة الأمر، وفي ضوء ذلك تتّخذ قرارها المناسب.

ولمّا كانت الملكة لا تعلم حقيقة سليمان عليه السّلام وكانت العادة بأنّ الملوك الظّلمة إذا دخلوا مدينةً أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة فإنّها قرّرت أن تبعث لسليمان عليه السّلام بهديّة فمنتظرةٌ ومرتقبةٌ بالّذى يرجع به الرّسل. إنّه إن كان ملكاً قبل الهديّة وتركهم وشأنهم، وإن كان نبيّاً رفض الهديّة وأصرّ على دخولهم في دينه. وأرسلت الملكة إلى سليمان عليه السّلام بهديّةٍ قيّمة. وأنكر سليمان عليه السّلام هديّتهم، وبيّن لهم أنّهم هم الّذين يفرحون بالهديّة الّتى تُهْدَى إليهم أمّا هو فقد أعطاه الله تعالى خيراً ممّا آتاهم. أعاد سليمان عليه السّلام الهديّة، وأمر الرّسل أن يعودوا بالهديّة، وأن يرجعوا إلى ملكتهم، وأن يخبروها بحقيقة الأمر، ويهدّدهم بأنّه سوف يأتيهم بجنودٍ لا طاقة لهم بها، وسيخرجهم من أرضهم أذلّةً صاغرين إن لم يأتوا إليه طائعين مذعنين.

لقد صدق حدس ملكة سبأ حينما ردّ عليه السّلام الهديّة، فهو نبيٌّ وليس ملكاً. وصدق عليه السّلام في توقّعه حينما ردّ الهديّة، فها هي ذى ملكة سبأ تأتى

من اليمن إلى سليمان عليه السّلام في فلسطين، وبذلك هي لا تتعالي عليه بل تأتى طائعة.

وحينما دنت الملكة من سليمان عليه السّلام أراد أن يؤتَى له بعرشها كي يتبيّن شيءٌ من فضل الله تعالى عليه، وكي ينظر مدى استعدادها للاهتداء في مجال المحسوسات أوّلاً، المعنويّات آخرا. سأل سليمان عليه السّلام حاشيته وجنده: أيّكم يستطيع أن يأتينى بعرش ملكة سبأ قبل أن يأتونى طائعين. قال رئيسٌ من الجنّ ماردٌ قويٌّ أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك للقضاء هذا الصّباح، وإنّى عليه لقويٌّ حفيظ. قال الرّجل من الإنس الصّدّيقُ الّذى عنده علمٌ من كتاب الله تعالى: أنا آتيك به قبل أن يرجع إليك بصرك حاملاً أوّل صورةٍ تقع عليها عيناك، وكان ذلك الشّيء الّذى رجع به بصر سليمان عليه السّلام إليه هو عرش ملكة سبأ. فلمّا رأى سليمان عليه السّلام ذلك العرش مستقراً عنده بكامل هيئته وصفته قال هذا من فضل ربّى جلّ وعلا ليختبرنى أأشكر النّعم أم أجحدها. إنّ من شكر فإنّما يشكر لنفسه، لأنّ ثواب الشّكر راجعٌ إليه، ومن كفر فإنّما يكفر عليها، لأن عقاب الكفر مرتدٌ عليه. إنّ ربّى جلّ وعلا غنيٌّ كريم لا يحرم جوده البَرّ والفاجر.

قال سليمان عليه السّلام لحاشيته غيّروا لهذه المرأة سرير ملكها بالزّيادة فيه والنّقصان منه ننظر أتهتدى إلى معرفته أم لا تهتدى؛ وذلك دليلٌ على الاهتداء في المعنويّات أو على عدم الاهتداء.

فلمّا جاءت الملكة ومرّت بعرشها قيل لها: أمثل هذا عرشك؟ ﴿قالت كأنّه هو﴾ وإنّ اتّساق الجواب مع السّؤال دليلٌ على أنّ الملكة، بإذن الله تعالى، من الّذين يهتدون. وهنا يتذكّر سليمان عليه السّلام بعض فضل الله تعالى عليه في مجال الهداية. لقد آتى الله تعالى سليمان عليه السّلام العلم النّافع من قَبْل ملكة سبأ، وكان عليه السّلام مسلماً لله تعالى ربّ العالمين مع المؤمنين من ذى قبل.

لقد صدّ ملكة سبأ عن توحيد الله تعالى ما كانت تعبد من دون الله تعالى،

---

(١) انظر ـ مثلاً ـ إفحام اليهود للسّموءل بن يحيى المغربى ١٥١ الطّبعة الثانية ١٤٠٧هـ.

وذلك بعبادة الشّمس والسّجود لها. إنّها كانت من قومٍ كافرين فسارت على نهجهم.

وقد أراد سليمان عليه السّلام أن ينبّه ملكة سبأ إلى بعض مظاهر فضل الله تعالى عليه فقيل لها ادخلى ساحة القصر فلمّا رأت السّاحة حسبتها ماءً بسبب صفاء الزّجاج الموضوع عليها ونقائه، وكشفت عن سَاقيها كي تخوض الماء. قال سليمان عليه السّلام لها: إنّه سطحٌ ناعمٌ من زجاج. ولم تملك ملكة سبأ تجاه هذا الفضل من الله تعالى على سليمان عليه السّلام في مجال الصّناعة إلاّ أن قالت على رءوس الأشهاد: ربّ إنىّ ظلمت نفسى بالشّرك وأسلمت مع سليمان لله تعالى ربّ العالمين الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. والمعروف أنّ داود وسليمان عليهما السّلام من أنبياء بنى إسرائيل، وهما بطبيعة الحال يتأخّران زمناً عن موسى عليه السّلام كبير أنبياء بنى إسرائيل[1] وإذا كان موسى عليه السّلام قد آتاه الله تعالى من علم الظّاهر وكان الخَضِر قد آتاه الله تعالى من علم الباطن، كما يُفْهَمُ من قصّة موسى عليه السّلام مع الخَضِر في سورة الكهف، فإن داود وسليمان عليهما السّلام قد آتاهما علماً لَدُنّيّا. وبشأن سورة النّمل المكّيّة الكريمة نستطيع أن نقول على جهة العموم: إنّ العلم أحد أهمّ المحاور الّتى دارت حولها قضايا السّورة الكريمة وكثر الحديث.

(٤)

((صالحٌ ولوطٌ عليهما السّلام))

الآيات (٤٥-٥٥)

ولقد أرسل الله تعالى إلى ثمود في مدائن صالح والعلا والحِجْر أخاهم في النّسب صالحاً عليه السّلام فدعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فإذا القوم فريقان مؤمنٌ وكافر يختصمان. وتجاه استهزائهم بالعذاب يسألهم عليه السّلام

في إنكار: لِمَ تستعجلون بالسّيّئة قبل الحسنة وبالعذاب بدل الرّحمة. هلاّ تستغفرون الله تعالى من ذنوبكم وتتوبون إليه وتعملون الصّالحات لعلّ الله تعالى يرحمكم. وحينما حلّت بهم السّيّئة كالجدب والفقر والمرض قالوا تشاءمنا بك يا صالح وبمن معك من المؤمنين. قال لهم صالحٌ عليه السّلام: طائركم عند الله تعالى وعذابكم مِنْ قِبَلِهِ عزّ وجلّ بسبب تبديلكم نعمة الله تعالى كفراً. الحقيقة أنّ الله سبحانه وتعالى يبلوكم ويختبركم بالشّرّ والخير فتنةً وامتحانا، كي تفيقوا من غفلتكم وتتوبوا إلى بارئكم جلّ وعلا.

وكان في المدينة تسعة أشخاصٍ يفسدون فيها بالمعاصي وإهلاك الحرث والنّسل ولا يصلحون. قال بعض المفسدين لبعضهم الآخر: لنحلف بالله تعالى جميعاً لنقتلنّ صالحاً باللّيل غِيلةً وأهله أجمعين ثمّ لنقولنّ لوليّ دمهم ما شهدنا مهلك أهلك وما حضرنا قتلهم وإنّا لصادقون خاصّةً وأنّا نقوم بهذه الجريمة في الظّلام فلا نرى ضحايانا ولا نتبيّنهم. ومكروا مكراً فظيعاً فبعد أن عقروا النّاقة اتّجهوا إلى صالح عليه السّلام وأهله، ومكر عزّ وجل بهم مكراً أكيداً، فأفسد جلّ وعلا مكرهم، وردّ كيدهم في نحورهم، وهم لا يعلمون أنّ مكرهم السّيّىء قد حاق بهم بإذن الله تعالى. فانظر يا محمّد ويا أيّها الإنسان كيف كان عاقبة مكرهم ومصير كيدهم. إنّا دمّرناهم وقومهم أجمعين، وهذه هي بيوتهم خاويةٌ بسبب شركهم ومساكنهم خاليةٌ بسبب صدّهم عن سبيل الله تعالى. إنّ في ذلك لعبرةً لقومٍ يعلمون ذلك مثل كفّار مكّة الّذين يجب عليهم أن يستغفروا الله تعالى من ذنبهم ويتوبوا إليه توبةً نصوحا وإلاّ فإنّ المصير واحد. وأنجى الله تعالى الّذين آمنوا واتّبعوا صالحاً عليه السّلام وكانوا يتّقون الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النّواهي.

والمعروف أنّ آثار ثمود في وادى القرى باقيةٌ من أجل أخذ العبرة، وإنّ الشّيء ذاته يقال عن آثار قرى قوم لوطٍ عليه السّلام في فلسطين.

وكما جمعت سورتا الفرقان والشعراء الكريمتان بين ثمود وقوم لوط عليه السّلام جمعت سورة النّمل الكريمة بينهما. لقد أرسل الله تعالى لوطاً عليه السّلام

إلى قومه إذ دعاهم إلى الله تعالى وأنكر عليهم إتيان الذّكران في أدبارهم عن علمٍ بأنّهم يأتون ذلك الصّغار الّذى لم يسبقهم إليه أحدٌ من النّاس. ما أشدّ العجب من هؤلاء القوم الّذين يعلون الرّجال لأجل الشهـوة بدلاً من فروج نسائهم الّتى أحلّها الله تعالى لهم إيّـاها بالنّكاح. الحقيـقة أنّ القوم انـتهوا إلى أحطّ درك في مـجال الجهل ضـدّ العلم، فهم لا يـعرفون حقّ الله تعـالى وما أمـر به ونهى عنه، وفي مجـال الجهل بمعنى السَّـفَه والحـمق والغباء. وأيّ سَـفَهٍ وراء الشّـرك ووراء هجر الحلال إلى الحرام وإتيان الذُّكران.

(١) انظر الإتقان ١/ ٤١.